الدليل السابع
التناسق الفكري في القرآن

بعد أن عرفنا الشيء الكثير عن القرآن ، علينا الآن أن نغوص في أعماقه ، ونتحرى ذاتيته ، لنقف على موضوعاته المتعددة ، وفكره الإنساني الشامخ وتكامل بناء لبناته التي تم تجمعها في بضع وعشرين سنة ، فكونه منجماً لم يغض من كماله ، فالمتصفح له كله لن يرى آية أدخلت الضيم على أختها ، ولا يلمح سورة تنكرت وخالفت أخرى ولا يشاهد واحدة أتت بفكرة مغايرة لما سبقتها بل ترى التناسق والتكامل والترادف لتحقيق الغاية الكلية وهو الكمال الذي نطق به في آخر آية نزلت :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

لا جرم أن القرآن هو النمط الوحيد في القوة والإبداع ، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ، ولا يعثر القارئ الباحث على اختلاف في جزئياته ولا في كلياته ، فكيف تحققت فكرة التناسق بين آيات القرآن المتعددة المعنى المتباينة الظروف ، المختلفة الأغراض علماً بأن الشعراء في العصر الجاهلي لم يتعودوا

في قصائدهم الالتزام المستمر للفكرة المتناسقة ، حتى إن بعضهم كان يضع في كل بيت معنى مستقلاً عما قبله وعما بعده . . . والمتحري للتراث الثقافي الإنساني يصل إلى الإقرار بأنه ما وجد كتاب في هذا التناسق والتكامل في مواضيعه المتعددة ، وغاياته السامية ، وتشريعاته المبنية على الفطرة الإنسانية ، وقد تم ذلك كله على الرغم من بعد الشقة ، بين نزول أوله وآخره ، والظروف التي مرت بينهما وإذا ما تحريت أديباً ودرست فترة خمس وعشرين سنة من حياته فستجد بعد الشقة بين الحياتين حتى لتخال أن الأديب في بداية الفترة غيره في نهايتها ؛ وسوف تجد أن ما كتبه في بداية حياته قد تركه ونقده في نهايتها .. ولربما قيل إن الآيات الناسخة والمنسوخة من هذا القبيل والرد على ذلك سهل لكون الآيات الناسخة والمنسوخة ما هي إلا آيات تتوخى التدرج في فهم الأحكام وتطبيقها ، فبعد أن يتحقق تطبيق الأحكام في الفترة الأولى تتنزل الآيات الناسخة لإتمام الشريعة وكمالها ، وهكذا . وعلى سبيل المثال خذ الآيات التي تم فيها تحريم الخمر . . . فترى كيف توخت التدرج في الوصول إلى الحكم الشرعي النهائي ، وبعد هذه اللمحة الخاطفة علينا أن نبين صورة بسيطة عن التناسق بين الجزئيات والكليات في القرآن .

ومن الأمور الكلية النظرة الموحدة عن الله والكون والإنسان ، فالمتطلع إلى خفايا الأغراض في الآيات ، يلمح نظرة واحدة

لا ثانية لها وعلى سبيل المثال :

النظرة الكونية : فلنقرأ هذه الآيات المتناثرة في كتاب الله :

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إِن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ [الزمر : ٢٠] .

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾[1] .

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إِلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [يونس : ٦] .

﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إِن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ [النحل : ١١] .

﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ،

---

(١) يس ٣٨/ ٣٩/ ٤٠ .

ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إِن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إِن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إِن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ [الروم : ٢٠ ـ ٢٧] .

﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [الرحمن : ٣ ـ ٧] .

﴿ وكل شيْ عنده بمقدار ﴾ [الرعد : ٨] .

أما شاهدت في مجموعة هذه الآيات وحدة في الموضوع وانطلاقاً لفكرة واحدة غايتها صلة السبب بالمسبب والرجوع بالمخلوق إلى الخالق وكل هذا في كشف دقيق لقانون الكون المتناسق والمقدر والموزون وهذا المعنى يتجلى في هذه الآية :

﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الفتح : ٢٣] .

ولذا ترى غرضاً واحداً لمجموع الآيات الكونية رغم تباينها واختلاف مواضيعها بل تجد لهذه الآيات غرضاً خاصاً وهو معرفة نظام الكون وغرضاً عاماً شاملاً تحويه جميع الآيات وهو الإشارة إلى قدرة الله المطلقة والموجدة والمقدرة في هذا الكون ، وهذا كله يظهر في فكرة الوحدانية التي ترفع الإنسان إلى أعلى مستوى الإنسانية دون العكوف على صنم ولا الاهتمام بشمس ولا قمر لذاته . . وهكذا يرى القارئ الكنز الدفين تحت الجمال اللغوي ، والسر المصون خلف المعاني الواضحة الجلية ، وقد جمع بقصد في اللفظ مع الوقار الكامل بحق المعنى ، وهذا نادر الحصول وغاية دونها الإعجاز في تحقيقها . . . وبعد ذلك ترى خلف هذا التناسق إقناعاً للعقل البشري وإقناعاً للعاطفة الإنسانية ، لأن الإنسان في حد ذاته يملك قوتين : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، وأما إحداهما فتبحث عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به . وأما الأخرى فيحل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ؟ والمعنى المحقق لغرضه هو الذي يوفي للقارئ هاتين الحاجتين ، وهذا ما يجده القارئ في كتاب الله . . . المبين لحقيقة الكون الناطق بالحق ، أما وجدوا ما فيه من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما في السماء من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال ، والكمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق البديع لهذا الكون المتكامل ولذا نرى

مجموعة هذه الآيات تحقق معنى :

﴿ تبصره وذكرى لكل عبد منيب ﴾ .

نعم إنها تبصرة تكشف الحجب وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب تنفع كل عبد عاقل حكيم .

وهذه الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل المرتب ، تجعل للنظر في كتاب الكون ومعرفته إليه أثراً في القلب . ولذا أعاد ، وكرر ، وبسط ووضح في كثير من هذه الآيات ليركز عقيدة الإنسان بالعين المجردة لتلمح عظمة الله في مخلوقاته .

فالقرآن بناء متماسك قد بني على مقاصد كلية وأقام لكل مقصد دليلاً ، ولكل فصل برهاناً ، وتناسق القرآن كتناسق الحجارة في البنيان ، بل إِنه التحم كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان . . أي تدبير محكم ، وأي تقدير مبرم ، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ، لقد أعد لهذه الآيات المبعثرة نظامها الكلي ونسقها في إِبان نشأتها إلى ما قدر لها ، حتى صيغت في ذلك العقد العظيم ، ولا بأس أن نرى تناسق القرآن في النظرة للإنسان :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم . . . ﴾ .

﴿ إِني جاعل في الأرض خليفة . . . ﴾ .

﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض . . . ﴾ .

﴿ هـو الـذي جعـل لكـم السمـع والأبصـار والأفئـدة قليـلاً ما تشكرون ﴾ .

﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ .

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ [يونس : ١٤] .

وإذا أردنا جمع الآيات التي تبحث عن الإنسان لضاق بنا المجال واحتجنا إلى مؤلف بذاته ، وإذا ربطنا الأجزاء المتناثرة التي تبحث عن الإنسان وماهيته ومصيره ونفسيته وشعوره ، لوجدنا بحثاً متناسقاً متكاملاً ، لم يترك شيئاً من ذاتية الإنسان ولا من أحواله النفسية والخارجية . وإِن الأفكار المتناسقة في القرآن لتظهر للعيان ؛ فالأمور التي تبحثها كثيرة ؛ كارتباط الحوادث في الكون بعضها ببعض ارتباطاً مطرداً ، ومما يوحي من نظريات الفكرة السببية فجعل من الكون والإنسان ، مجالاً للبحث ، وإِشراقاً للروح ، وإِنعاشاً للحواس التي هي نوافذ الفكر البشري للمعرفة الإنسانية . . ومن أروع ما ظهر فيه التناسق في القرآن ذلك التعاضد والتوافق بين الروح والجسد فليس في القرآن صراع وعداء بين الروح والجسد كما نجده في الأديان الأخرى بل نجد التعاون الواضح لإِيصال الإنسان إلى حياة روحية ومادية بأعلى إمكانياتها .

وهذا ما نلمحه في هذه الآيات :

﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . . . ﴾ [القصص : ٧٧] .

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف : ٣١] .

﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾ . . . [النحل : ٣٠] .

وليس في القرآن عالم الجسد وعالم الروح ، وعالم السماء ، وعالم الهاوية .

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ .

﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ .

﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾[1] .

---

(١) النور/ ٥٥ .

فليس إذن في العقيدة الإسلامية إنسان متصدع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسد ، وليس فيه عالم متصدع يتوزع بين السماء والأرض ولا خليفة متصدعة تتوزع بين اللعنة الأبدية ، أو المغفرة عن طريق الصلب . وهذا مما جعل طه حسين يقر بهذا التناسق العجيب فقال : (على الرغم مما له في هذا الموضوع من آراء) وليس في التراث الإنساني كله شيء يشبه القرآن الكريم . .[1]

وأما عن الوحدة في الموضوع فلم يكن مصادفة ولا اعتباطاً أن ينفق القرآن ثلاث عشرة سنة كاملة في تقرير قضية واحدة أصيلة هي قضية الألوهية . . وقضية الاعتقاد .

لم يكن ذلك لأن العرب مغرقين بالوثنية فحسب . .

ولكن كان السبب إلى جانب ذلك وقبل ذلك . . لأن هذه القضية هي محور ارتكاز الحياة البشرية كلها لا يقوم لها بناء ولا تستقيم لها حياة إلا إذا استقامت هذه القضية في نفوس الناس ، ورسخت في ضمائرهم ، وصارت هي الأساس والبناء التحتي لكل انطلاقه في هذا الوجود ؛ لذلك ظل القرآن في الآيات المكية يؤكد على تثبيت العقيدة ، وترسيخ التوحيد ، ودحض الشرك ، والوثنية ، فجاء لنا بتوحيد صاف لا يشوبه غموض ، فلا تعقيدات

(١) الإسلاميات ص٦٣٨ .

في الطبيعة الإِلهية ولا أسرار ، ولا لبس في الاعتقاد ، بل جاء بخلاصة المبادئ والغايات التي جاء بها الأنبياء ، والتي وافقت توحيده الخالص ، وهذا كله واضح في هذه الآيات التي سأعرضها لديك .

قال الله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إِلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إِلٰه غيره ، إِني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه : إِنا لنراك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك فأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إِنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف : ٦٣] .

﴿ وإِلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إِلٰه غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه : إِنا لنراك في سفاهة إِنا لنظنك من الكاذبين ، قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول رب العالمين ، أُبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، واذكروا إِذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة

فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد أباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [الأعراف : ٧٢] .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ، لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال ، يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ [الأعراف : ٧٩] .

وقال الله تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ثم جاء القرآن ليؤكد ما جاء به الأنبياء السالفون فقال :

﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ [الأحقاف : ٤] .

ونلمح في هذا تلقيناً من الله لرسوله ﷺ ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح ، الكتاب الذي لا يقبل الجدل والمغالطة إلا مراء ، ولا يستطيع الإنسان أن يزعم أن تلك المعبودات ـ سواء أكانت حجراً أم شجراً أم جناً أم ملائكة أم غيرها ـ قد خلقت من الأرض شيئاً .

ثم يؤكد القرآن مسفهاً أحلام الوثنيين موضحاً فكرة التوحيد قائلاً :

﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . . [الأحقاف : ٦] .

وإذا أردنا أن نجمع الآيات التي تبحث في موضوع العقائد لوجدنا المجموعات الهائلة التي ناقشت الموضوع من جوانب متعددة وغاصت في أعماق الفكر الإنساني منذ وجد حتى وصل الذروة من الكمال وهي تدق على ناقوس واحد وتهدف لغاية واحدة ألا وهي تثبيت عقيدة الوحدانية ، فأنى لإِنسان عاش في كنف الوثنية ، ولم يسبر غور الماضي ولم يتطلع على المستقبل أن يأتي ببحث كامل عن الوحدانية ويناقشها في أدوارها ويضع الدواء للقلة المستعصية لا شك أن القدرة الإلهية هي التي أوجدت كل ذلك ، وما كان دور الرسول إِلا التبيان والتوضيح والشرح للغامض من القرآن . . .

وبعد هذا كله لا ضير علينا إذا ناقشنا الأمور الكلية في القرآن (كموضوع الإرث) وتقسيماته الدقيقة ، وحقوق كل فرد بتناسق حسابي عجيب حتى صار علماً بذاته ، وله أصوله ، وفروعه ، وكلياته ، وجزئياته ، وكل هذا بتناسق مع الفكرة الإسلامية الجامعة للحياة الاجتماعية من نظام الأسرة ، ونظام المجتمع ، وما تولد عنها من تكامل الحياة ضمن الأسرة . فهذه آيات تؤكد على طاعة

الوالدين وتقرنها بالعبادة لله ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إِلا إِياه وبالوالدين إِحساناً ﴾ . وتلك آية تبحث في نظام الزوجية وتعاونها والمشاركة الفعلية بنسق نفسي ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إِن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] والمتمم للبحث يجد هناك آيات في حقوق الزوج وحقوق الأولاد ومشكلات المجتمع ، مما يدهش الباحث المتعمق . فالمتحري للحقيقة يجد نظام الأسرة في الإسلام بشكل لا نظير له ، ولم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها وفصلها وكشف اللثام عن خفاياها . .

ومن الجزئيات الهامة المفصلة مشكلة الربا والاحتكار والغبن في البيع ، وطلب كتابة الدين وإشهاد الشهود ، وحقوق المحتاجين . كل هذه الأمور شهادة على أن هذا المنهج المتكامل خطط للإنسانية من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى ولا بديل للبشر عن هذا النهج الرفيع . لأننا نجد فيه الحلول السليمة لمصائب الرأسمالية كلها من طغيان وفساد ، وإذلال للخلق واستعمار بشع ، واستغلال للشعوب . . . كل هذا عن طريق الأمور التي حرمها الإسلام كالربا والاحتكارات . . . وكلها تقوم على أحكام الربا والاستغلال علماً بأن هذه الأمور لم تكن واضحة يوم نزل القرآن ، ولم يكن ظاهراً

---

(١) الروم/ ٢١ .

بأن الرأسمالية الطاغية ستقوم على الربا ثم على الاحتكار . وإن تحريم الربا والتشديد في تحريمه بالإضافة إلى تحريم الاحتكار يكفي وحده لأن يثبت ربانية هذا المنهج . . .

ولو استعرضنا هذا المنهج الاقتصادي الإسلامي في نظريته العامة التي تقوم على استخلاف الله للإنسان في الأرض ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وعلى كون المال مال الله ، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه ، كل ذلك وفق الشروط المبينة في شريعة الله عز وجل ، لرأينا في القرآن تناسقاً في النظرية ، وإحاطة للفكرة ، وتحقيقاً للغرض الذي بدأ به وبحثه ، ولا نجد تناقضاً في المنهج العام والخاص للنظام الاقتصادي بل نعثر على ترادف وتكامل كلي بين الجزئيات والكليات .

وبعد هذا إنني لأدعو المثقفين العرب أن يحيطوا بالفكر القرآني ومنه الفكر الاقتصادي الذي بحث من قبل الكثير من المفكرين المسلمين مثل كتاب (اقتصادنا) لباقر الصدر وبحث العدالة الاجتماعية وبحوث كثيرة منها كتاب التنمية الاقتصادية والإسلام لـجاك أوستري . . . وبعد ذلك عليكم أن تنظروا نظرة سليمة لأنه هل يعقل من رجل عاش قبل أربعة عشر قرناً أن يعطي بحثاً اقتصادياً متكاملاً ، حين كانت الإنسانية تسير خبط عشواء حيث لا حاجة لهذه الأمور الاقتصادية ولا ضرر منها ، وقد بحث أموراً وصلنا

إليها في مجتمعنا العالمي اليوم كالربا والاحتكار الذي آلت إليه البشرية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وإذا كان محمد هو الرجل العبقري الذي قام بكل هذه الأشياء ، ودعا إِليها فلا يعقل أن يكون بشراً عادياً ، وما دام يؤكد بشريته ﴿ قل إِنما أنا بشر مثلكم ﴾ فهذا يدل دلالة مبينة على أن مصدرية هذه البحوث المتناسقة في كل من الحكم والمال والاجتماع ، وجميع الأمور التي يتناولها القرآن من مصدر علوي ذي قدرات خفية وعظيمة وغيبية . كل هذا رد فعل على من يقول ببشرية القرآن الكريم ودحض للفرية القائلة ، (وما القرآن إلا انطباع للبيئة العربية في نفس الرسول) وقد ردد هذه الفرية بعض المثقفين العرب نقلاً عن أسيادهم المستشرقين مثل (جب) في كتابه المحمدية فما هو جواب هؤلاء المتنطعين على تناسق الفكر القرآني ، وكيف يستطيعون الجمع بين الغيبيات التي ناقشها القرآن وأوجد لها الدواء الشافي مع قولهم بالبشرية للقرآن . . . وهل بإِمكانهم القبول بالتحدي الذي تحداهم القرآن به . وخاصة منهم كبار الأدباء والمفكرين في المجتمع العالمي . . .

وهناك فئة تقول : إِن كان هذا القرآن متناسقاً ، والرسالة صالحة بكليتها فلماذا لم تتجسد سلوكاً مستمراً على مر الزمن ؟؟ . . .

الجواب : إن العقيدة الشاملة هي التي تضع للناس مقاييس للأعمال والأخلاق وليست هي المجبرة التي تعمل بأيديهم ما يطلب منهم أن يعملوه أحراراً في الرأي والشعور ولو كان شفيع القانون للبقاء أن ينفذه كل خاضع له حرفاً حرفاً وأن يمتنع خلافه أصلاً وفرعاً لما كتب لقانون بقاء . . . وكذلك الأخلاق فهي باقية على الرغم من تضافر البشرية لتحطيمها ولإِبعادها من حياتهم العملية ، وما أجمل أن ننهي بحثنا بقول رائع للباقلاني يصف تناسق القرآن :

« تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ونظم أنيق ومعرض رشيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا مُتَلَو على الأفهام ، ولا مستكره في اللفظ ، ولا مستوحش في المنظر ، غريب في الجنس غير غريب في القبيل ، ممتلئْ ماء ونضارة ، ولطفاً وغضارة ، يسري في القلب كما يسري السرور ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على المتناول المغتاب ، كالروح في البدن ، والنور المستطير في الأفق ، والغيث الشامل والضياء الباهر » .

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤٢] .